



في شتاء عام 2012، عندما قتلت الحرب في سوريا عشرات الآلاف من الأرواح، بدا الرئيس الروسي فلاديمير بوتين، رافضاً للرئيس السوري المحاصر بشار الأسد، وغير مبال بشأن مستقبله. فقد أنفق من الوقت لمحاكمة القادة في العاصمة الأوروبية أكثر مما فعل في موسكو. في ذلك الوقت صرَّح بوتين قائلاً: "سنمنشغلين بمصير نظام الأسد".

وبعد ثلاث سنوات، وثق الرئيسان تحالفهما بما يعكس ليس الأولوية الملحّة لإنقاذ الحكومة المركزية المتداعية في سوريا، فقط، ولكن أيضاً تراجعاً مكانته كل منهما على الساحة الدولية، وفقاً لما كتبته صحيفة "نيويورك تايمز".

ولكن حتى مع تدخل جيش بوتين بقوة لإنقاذ نظام الأسد في حربه ضد الثورة السورية، وسفر الأسد سراً إلى موسكو مساء الثلاثاء لعقد اجتماع لتقويم الحرب في سوريا، لم تتغير حالة البرود في العلاقة الشخصية بين الرجلين، كما نقل مسؤولون ودبلوماسيون ومحليون.

بكل المقاييس، ظل الحكمان متبعين، كل منهما يحذر من الآخر، على مستوى العلاقات الشخصية. وقد بدا الكرملين محبطاً، وخصوصاً تجاه ما يعتبره غطرسة الرئيس الأسد، وعدم رغبته، حتى وقت قريب على الأقل، في الخضوع لرغبات روسيا، حول قضايا مثل محادثات السلام التي بدأت في موسكو هذا العام وإطلاق سراح المعارضين الذي قد يلعبون دوراً في أي حل سياسي.

ورأى ديمتري تريينين، مدير مركز كارنيجي موسكو، أن الأولوية القصوى بالنسبة للروس في تدخلهم هو إنقاذ السلطة المركزية للدولة السورية أكثر من الأسد نفسه أبداً في وقف انتشار المد الجهادي. وأضاف: "بالنسبة لهم، الأسد ليس بقرة مقدسة، وإنما قضيتهم هي إنقاذ الدولة السورية، لمنعها من الانهيار كما حدث في ليبيا واليمن".

وقالت الصحيفة إن هذا من الأمل للذين يريدون أن يروا نهاية تفاوضية للحرب في سوريا ويعجل برحيل الأسد نفسه، وهو ما ألمح بوتين إلى لقابه، حتى مع التورط العسكري الروسي المباشر لدعم حكومة نظام الأسد.

ولكن هناك من يشكك في هذا: "عد التشكيك بالأسد لا يعني أنهم على استعداد للتفاوض على صيغة للتخلص منه"، كما قال مسؤول كبير في الإدارة في واشنطن، نقلت عنه صحيفة "نيويورك تايمز"، الذين تحدث مثل غيره من المسؤولين في هذه المقالة بشرط عدم الكشف عن هويته.

وأفاد التقرير أن زيارة الأسد إلى موسكو -وأقيل إنه سافر على متن طائرة عسكرية روسية ولم يعلن عنها حتى عودته إلى دمشق. أظهرت كيف يعتمد بشدة الآن على الإسناد الذي يتلقاه من روسيا وإيران، ولكن لا يبدو أنه كافيا لجسم الحرب وترجح كفة معسكره.

ورغم بعض أوجه الشبه، فإن تباين خلفيات ومزاج كلا الحاكمين حال دون الارتباط الوثيق بينهما، وفقا لمسؤولين ومحاللين، حتى وإن كانت الأحداث في سوريا وخارجها قد اضطررتهما للتلاقي. "ليس هناك الكثير من الكيماء في العلاقة بينهما"، كما قال أحد الدبلوماسيين الغربيين الذي أمضى سنوات طويلة في المنطقة.

وقد وصف الباحث "ترينين" من مركز كارنيجي علاقة بوتين مع الرئيس الأسد بأنها تقوم على المصالح المتزامنة أكثر من الأيديولوجية أو القيم. حتى ليلة الثلاثاء، لم يكن بوتين قد التقى نظيره السوري منذ زيارته عام 2005 إلى موسكو، رغم أن ديمتري ميدفيديف الذي خلف مؤقتا بوتين رئيسا للبلاد لمدة أربع سنوات، قد سافر إلى دمشق في عام 2010.

وكشف تقرير الصحيفة، نقاً عن مسؤولين ومحاللين، أن التخطيط السري للعمليات العسكرية الروسية، وقع على المستوى الوظيفي بين الجيشين ووكالات الاستخبارات، التي حافظت على الاتصالات طوال فترة الحرب بسبب صفقات الأسلحة والوجود البحري الروسي في ميناء البحر الأبيض المتوسط طرطوس.

وما بدأ انتفاضة شعبية ضد الحكومة السورية منذ أربع سنوات تحول إلى حرب شبه عالمية مع تورط ما يقرب من اثنى عشر بلدا في الصراع. "من الواضح أنه تحالف قتالي"، كما قال الباحث "ترينين"، مضيفا: "مع ذلك، فإن أساسه مصالح وليس قيمًا أو إستراتيجية".

والهدف الأساس لبوتين في سوريا، كما أعلنه في تصريحات اجتماع الأمم المتحدة الشهر الماضي، كان منع سقوط دولة ذات سيادة في منطقة الشرق الأوسط بسبب ما اعتبره تدخلاً أجنبياً بقيادة الولايات المتحدة.

والهدف الثاني، تأكيد عودة ظهور روسيا كلاعب أساس في الشرق الأوسط وخارجها، وهو ما قاده للتدخل العسكري تخفيفاً للعزلة الدبلوماسية المفروضة على بوتين بعد أزمة أوكرانيا.

والسؤال الآن هو: هل بإمكان بوتين الضغط على الأسد لقبول حل تفاوضي لحكمه. "تأثير بوتين في الأسد هو مثل أوباما في نتنياهو"، كما قال دبلوماسي مقيم في سوريا في إشارة إلى علاقة المشاكسنة بينهما.

وفي الواقع، يقول التقرير، أثبتت الأسد في بعض الأحيان أنه تكون شريك متعدد في المحاولات الروسية الرامية لإنها الصراع، حتى إنه أثار حفيظة بوتين، وفقاً لدبلوماسيين ومحاللين.

وفي هذا السياق، نقل التقرير عن الباحث "أندرو تابلر"، وهو خبير في شؤون سوريا في معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى، قوله في إشارة إلى الروس: "أعتقد أنهم يعرفون مدى ارتباك وضبابية نظام الأسد، وهم محبطون من ذلك".

وأشار هو وآخرون إلى مساعي روسيا في يناير وأبريل الماضيين للتوسط في محادثات بين نظام الأسد وبعض مجموعات المعارضة المسلحة، وكان ذلك بتنسيق من وزارة الشؤون الخارجية وبرئاسة فيتالي نومكين، مدير معهد الدراسات الشرقية التابع لـأكاديمية العلوم الروسية.

وكان مثل الأسد، بشار الجعفري، قد أظهر القليل من المرونة في تلك المحادثات ورفض الموافقة على تدابير بناء الثقة، مثل الإفراج عن السجناء السياسيين الذين قد يشاركون في الحل السياسي.

وكشفت المحادثات عن حدود التأثير الروسي، وحتى الرئيس بوتين. في عام 2012، اختفى المعارض السوري، عبد العزيز الخير، فور عودته إلى البلاد من الصين للمشاركة في المحادثات التي أيدتها موسكو. فيما أفاد دبلوماسيون وشخصيات المعارضة أنه اعتقل من قبل قوات الأمن.

في العام الماضي، اعتقل معارض آخر، لؤي حسين، وكان يستعد لحضور محادثات الروس التي نظمت في موسكو. وقبع في السجن لعدة أشهر، وخرج معلناً أنه لن يبق داخل سوريا في محاولة لتغيير النظام من الداخل. وعلم، كما قال، أن روسيا لم تتمكن من دفع الأسد إلى أي مفاوضات ذات مغزى بينما لم ترد إيران ذلك.

وكشف حسين أنه "منذ اليوم الأول من اعتقالي، طالب السفير الروسي، مارارا، بإطلاق سراحه"، ولكن دون جدوى. وقال إنه يعتقد أن إيران هي التي ضغطت من أجل إطلاق سراحه.

بعد فشل هذه المحادثات، كما أوردت الصحيفة، استدعي بوتين وزير الخارجية السوري، وليد المعلم، إلى موسكو في أواخر يونيو الماضي، لعقد اجتماع وصف بالمتوتر.

ومن الواضح، في ذلك الحين، أن بوتين قد بدأ وضع الأساس للتدخل العسكري. وقال محللون إن هذا يمكن أن يضعف موقف الأسد في مواجهة تأثيرات بوتين.

وقد حذر مسؤولون في أوروبا والولايات المتحدة إن التدخل العسكري الروسي يجعل الحل السياسي أكثر بعدها. ومهما كانت مشاعر بوتين الشخصية تجاه الأسد، ففقاً للصحيفة، فإنه من الواضح أن هدف روسيا الآني هو إنقاذ النظام.

المصادر: